الدِّينُ والسِّياسة... إشكاليَّة أَم تَعَايُش

قراءة في كتاب: "كيفَ صَنَعنا القرن العشرين"*

عبَّاس عبد الحليم عبَّاس**

عُرِفَ جارودي بقراءته النقدية للحضارة الغربية في جوانبها المختلفة، وربما كانت محاكمته الأخيرة في فرنسا بتحريض من القوى الصهيونية العالمية، جراء نشره لكتاب: **الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية** قد زادته شهرة فوق شهرته. ولعل كتابه: كيف صنعنا القرن العشرين، بمثابة الاستمرار في نهج النقد الحضاري الذي يكشف الزيف أو التنوير في حضارة القرن العشرين بوجه عام.

بدأ جارودي الفصل الأول (مسيرة قرن وحياة) بتوضيح نوع المشكلة الكبرى التي تحياها الشعوب اليوم، وهي مشكلة دينية سياسية معاً، وعليه فإن اختيار المرء لمعسكر دون غيره هو ما يقرر مصير حياته أيضاً. لقد اختار جارودي الماركسية وتركها، وكذلك المسيحية، واتجه نحو الإسلام بحثاً عن "إحياء الأبعاد الداخلية والسمو والحبّ"، لأن الماركسية فشلت، والرأسمالية كذلك... وقد تأكد ذلك كله عبر خبرة طويلة بالحياة، وحوارات عميقة مع سادة الفن والسياسة والأدب والفلسفة.. توصل من خلالها إلى التخلّي عن الشيوعية التي انضمت إلى دائرة **الفكر المتفرد** المنبثق عن الفكر الأوروبي

---

* روجيه غارودي، **كيف صنعنا القرن العشرين** (القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٠م).

** باحث أردني، أستاذ في وزارة المعارف بجدة - المملكة العربيَّة السعودية.

والعولمة "أي قبول الهيمنة الأمريكية وفكرتها عن وحدانية السوق"، كما توصل إلى أسباب اضمحلال الغرب، وأن الدول غير الغربية تمتلك إمكانات وجود أساليب حياة مختلفة على الرغم من ضغوط الاستعمار. لقد درس جارودي السياسة، والتاريخ، وعلم الأخلاق، واللاهوت ليصل إلى أَنَّ الله تعالى ـــ كما بيّن القرآن ـــ لا يتوقف عن الخلق، وأنه أودع لدى الإنسان مهمة الخلافة في الأرض من أجل أن يكمل خلقه".

وتحت عنوان (حضارة الغرب حادثة) يبدأ الفصل الثاني بافتراض عدّة انفصالات وتغيّرات فكرية وحضارية، منذ أرسطو إلى النهضة التي ولدت على يديها الرأسمالية والاستعمار في وقت واحد، ومن هنا بدأت مشكلة "عبادة المال" ومشكلة العلاقات بين الذين يملكون والذين لا يملكون.

ومن خلال قراءة التاريخ الاقتصادي للعالم، من آدم سميث إلى وحدانية السوق، تبيّن لجارودي أَنَّ النظام الاقتصادي القائم على الربا ومفهوم السوق "لا يفرق بين الإنسان والحيوان حيث إنَّ كليهما لا تحركه إلاَّ المصلحة والغريزة لتحقيق اللذة أو الخوف من الألم". وبقراءته للفلسفة الفرنسية المادية الغربية المستمدة من ديكارت، تلك التي زرعت النضال ضد الدين والميتافيزيقيا لصالح تطور العلوم والطبيعة، ومن ثَمَّ التحوّل إلى وهمين فلسفيين هما: الوهم العلمي الذي يفرض قوانينه على الطبيعة، والوهم العقدي.

فالوهم الأول جاء بأثر ديكارت وشهوة (أن نصبح أسياد الطبيعة ومُلاَّكها)، هذا الهدف تم التوصل إليه بجدارة عن طريق العلوم والتِّقنيَّة، ممَّا أعطانا القدرة على تدمير تلك الطبيعة، والقوى النووية تملك اليوم مخزوناً يماثل نحو مليون قنبلة من قنابل هيروشيما، أي إمكانية تدمير ٧٠ مليار إنسان، أي القدرة على محو أيَّة علامة للحياة، ومن جهة أخرى فإن انتحار الكون ببطء أصبح مسألة مؤكدة، فتدمير طبقة الأوزون بسبب التنافس الصناعي يهدد بكوارث رهيبة ناجمة عن زيادة درجة الحرارة، وذوبان جليد القطبين بشكل يكفي لإغراق المدن الساحلية، كل ذلك نتيجة الدور المدمر الذي تقوم به الأسواق، دع عنك مذابح الغابات والبحار وثرواتها وتدمير طاقات البترول والمياه والأرض والهواء.

أما الوهم الآخر فقد بدا أكثر وضوحاً في الفلسفة الألمانية، حيث آمن عمالقة الفكر الأوروبي أمثال غوته وهيجل بـــ (أَنَّ الإنسان يمكن أن يحل محل الله في حكم العالم).

إذاً، هذا ما جناه الإنسان من عصر النهضة في الفلسفة الأوروبيَّة حسب رأي جارودي، أما صورة الوضع الفكري والواقع الاجتماعي بعد الحربين العالميتين فقد رسمتها ولادة قوة جديدة هي الولايات المتحدة التي عدت الحرب مسألة اقتصادية لم يسبق لها مثيل، إلى حد أنَّها حولتها إلى قوة عظمى واستطاعت فرض برنامج مارشال، ومن ثَمَّ معاهدة ماسترخت التي تعني عند جارودي: إخضاع أوروبا للقوانين الأمريكية، وفي الثلث الأخير من هذا القرن ربحت أمريكا الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي الذي خارت قواه من تحمل الحرب ضد هتلر، ومع بدء زعمائه بتبني منهج التنمية الغربي قام مستشارو يلتسين بتطبيق الرأسمالية التي أدت إلى تراكم الثراء عند قطب واحد من المجتمع، والبؤس عند الآخر. لأن الرأسمالية بتطبيقاتها الأمريكية وقيادتها للنظام الغربي تكلف العالم عدد موتى يماثل هيروشيما واحدة كل يومين.

لقد قادت الولايات المتحدة عصراً جديداً من تمزيق الكون من المحيط إلى الأورال من أجل استمرر هيمنة الشمال على الجنوب، فكانت حرب الخليج هي البروفة الأولى التي كان هدفها الحقيقي تدمير قوة العراق الدولة الوحيدة من دول العالم الثالث التي قد تملك الوسيلة لمنع الغرب وإسرائيل من تحقيق أهداف الهيمنة على الشرق الأوسط، إنَّنا نعيش مرةً أخرى مرحلة تعفن التاريخ، تلك التي تتميز بالسيطرة التقنيَّة العسكرية القاسية لإمبراطورية لا تدعو لأي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ.

وهذه هي أبرز مقاتل النظام الرأسمالي العالمي الجديد الذي تكشفت عوراته، وازدادت سوءاً بعدما افتضحت علاقته مع إسرائيل ـــ كما يرى جارودي ـــ، وهي علاقة ممثلة بوحدة جذور، ووحدة أهداف، واستمرارية كهنوتية وسياسية في رؤيتيهما للعالم. وقد استخدم بعض المؤرخين اليهود والأمريكان الإنجيل استخداماً سياسياً، فأثمر ذلك إعلان كارتر في الكنسيت الإسرائيلي التشابه بين شعبي أمريكا وإسرائيل، وأنهما يتقاسمان إرث الإنجيل، وأن "إقامة إسرائيل هو تحقيق للنبوءة الدينية"، تلك التي تمتد حتَّى جذور الفكر المسيحي عند مارتن لوثر، وتكشف بالتالي الأسطورة الصهيونية التي هدفت إلى أن تستبدل برب إسرائيل "دولة إسرائيل"، وذلك لخدمة تغطية سياسية قومية استعمارية لأرض مغتصبة هي أرض فلسطين، ولشعبها الذي تعرض لكل أنواع التعذيب والتنكيل لتحقيق أهداف تلك الأسطورة، ولتحقيق

التحالف بين الحضارة اليهودية و المسيحية ضد التحالف الإسلامي ـــ على حد تعبير هانتغتون مفكر وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاغون" ـــ وهي نفسها أفكار كثيرين من ذوي النفوذ في أعلى المناصب الأمريكية من الصهاينة.

وبعد هذه الأدلة الواضحة للغرب المسيطر عليه من قبل الصهيونية العالمية ينتقد المؤلف نزعة الحرب والعداء في الأنظمة الغربية، تلك التي تعود جذورها إلى التركيز على النزعة الذاتية عند الفلاسفة اليونان بعيداً عن فلسفة العقل... واستمرت بالتطور لتصل إلى التركيز على الزيادة الكمية للوسائل ونسيان البحث عن الأهداف الحقيقية للوجود الإنساني، (وهنا يحاول جارودي التركيز على فكرة وحدة الأديان بوصفها خلاصاً وحلاً لإشكالية العلاقة بين الغرب والشرق، وهي فكرة تحتاج إلى مناقشات طويلة لا يحتملها السياق الحالي).

وإذا كان الأمل مفقوداً في إعادة بناء ثقافة الغرب وحضارته، أو عودة وعيه، فإن جارودي يعوّل كثيراً على الصحوة الآسيوية من خلال جسر أوروبي آسيوي مروراً بإفريقيا لإيجاد وحدة سليمة متآلفة بعيداً عن غول العولمة (التي يعرفها غارودي بالتعبير الخفي لطموحات الإمبريالية للهيمنة على العالم)، ولا ينسى المؤلف دور كل من الصين وتركيا وإيران في دعم كل مشروع يهدف إلى تنمية أنفسها ودول أخرى على أساس الشراكة والتعاون، وليس الاستغلال الاستعماري البغيض، والرضوخ لأوامر البنك الدولي الخاضع تماماً لتعليمات الولايات المتحدة والمستعمرين السابقين.

وبالمثل يرى جارودي أنَّ أمريكا اللاتينية بحاجة إلى مشروع مماثل للتخلص من ذلك الاستغلال المجحف، وهذا يعني قناعة المؤلف التامة بأن التنمية الاقتصادية هي الدعامة الأولى التي تجعل المجتمعات قادرة على الحفاظ على إنسانيتها وتاريخها وفكرها ودينها، بعيداً عن نظرية الاستغلال التي زرعها النظام الاستعماري الرأسمالي.